شخصية الرّسول محمد (صلّى الله عليه وسلّم) في أشعار الشّعراء العرب (المسيحيين)، في أواخر القرن التّاسع عشر والقرن العشرين.

محور دور اللغة العربية في حوار الحضارات والتقاء الثقافات

د. منى علي السّاحلي

أستاذ مشارك في الأدب والنّقد

قسم للغة العربية وآدابها/كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتّحدة/ مدينة العين– دولة الإمارات العربية المتّحدة

الملخّص:

تتناول هذه الورقة أشعار الشعراء النصارى عن نبي الإسلام محمد (صلّى الله عليه وسلّم)، فتدرس أبعاد هذه الصورة ودلالاتها الدينية والاجتماعية والفكرية. كما تحاول تفسير هذه الدلالات من خلال ما شهده أصحابها من ظروف، والبحث عن محمولات هذه الشخصية من منظور الآخر غير المنتمي إلى الرسالة التي عني الرّسول بتبليغها.

يهدف هذا البحث إلى استجلاء صورة الرّسول محمّد– صلّى الله عليه وسلّم– في نصوص الشعراء العرب المسيحيين، في بدايات العصر الحديث؛ لبيان صورة رسول الإسلام في نظر من لا يتّبع رسالته، ولا يدين بدينه، وما تدل عليه هذه النظرة من مواقف لأصحابها تجاه الرسول وما يمثله لديهم من معان. كما يحاول البحث تفسير لجوء هؤلاء الشعراء إلى خطاب رسول دين آخر، في ضوء ظروف العصر وأحداثه، وما يمكن أن تحمل هذه الأسباب من رسائل مبطنة لأتباع الرسول، أو لأعداء دينه وقومه.

منهج البحث: سيتبع البحث المنهج الوصفي والتحليلي، كما سيعتمد على النصوص الشعرية، في استخلاص المعاني التي يجسّدها النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند الشّعراء العرب المسيحيين في مطلع عصر النّهضة العربية.

مقدّمة

من المعلوم لسلامة اعتقاد المسلم، أن يؤمن بحقيقة الرّسالة، وأن يحفظ للرّسول صلّى الله عليه وسلّم صفاتِه اللائقةَ بمقامه من الخالق والدّين والنّاس على حدّ سواء. من هنا كان التّصوّرُ الإسلامي للرّسول/ الإنسان المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. إنّ هذا التّصوّر الإسلامي الرّفيع لصورة الرّسول الجامعة بين القداسة والإنسانية في اتّساق وتوازن لا يفصل بين البشري والمقدّس إلا فاصل شفيف لا يسمح بطغيان أحدهما على الآخر، وإلا فسد الاعتقاد. لذلك كلّه يشيع تمجيد الرّسول صلّى الله عليه وسلم في كتابات المسلمين وفي فنّهم الشّعري، حتى انفرد لون خاصّ به؛ مكوّناً ما يمكن أن يعدّ جنساً أدبيّاً مستقلاً، له أساليبه وخصائصه، هو فنّ المدائح النبوية، وهو فنّ ازدهر في رحاب التّصوف،[1] وإن بدأ التّعبير عن حبّ الرّسول وتعداد مناقبه في الشّعر قبل ذلك، بل قبل أن ينتقل الرّسول إلى الرّفيق الأعلى، على نحو ما يظهر في شعر كعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهما. وكثر ذلك بعد وفاة الرّسول.

[1] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مطبعة دار الشّعب، القاهرة، لا ت، ص 14.

وإذا كان مدح المتوفّى يطلق عليه في اللغة اسم الرّثاء، فإنّه لم يطلق على مدح الرّسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، كأنّ الناس قد "لحظوا أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم موصولُ الحياة"[2] لذلك فإنّهم يناجونه و"يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء"[3] إلا ما كان من الشّعراء الذين عاصروا حدث وفاته، فذكروه مظهرين الجزع، أو الحزن والحسرة لموته، كما يشير زكي مبارك، على نحو ما عرف من (رثاء) حسان بن ثابت له، وقد أطلق عليه تسمية رثاء، لاختصاص شعر الرّثاء بإعلان التّفجّع والحسرة على الفقد،[4] أمّا ما قيل فيه– بعد زمن الوفاة بفترة– من شعر يعدّد مناقبه، ويمجّد شمائله الكريمة، فهو يدخل في (المديح)، وليس الرّثاء.[5]

من هنا تواترت القصائد في مدح الرّسول صلى الله عليه وسلم، وكثرت المعارضات لمشهوراتها، منذ كعب بن زهير، وحسان بن ثابت، إلى البوصيري وغيره، إلى عصرنا الحالي. وهو كلّه معروف ومشهور من محبّة المسلمين عرباً وغيرَ عرب للمصطفى صلى الله عليه وسلم، فحبّه تمام الدّين ودليل الإيمان وقربى للخالق عزّ وجل.

أمّا أن يعرب شاعر مسيحي لا يدين بالإسلام، ولا يتبع تعاليم رسوله، عن حبّه لرسول المسلمين محمّد عليه الصلاة والسّلام، ويبدي إعجابه بشخصيته، فهو أمر يسترعي الانتباه، وإن كان التّاريخ يحفظ مواقف لبعض المنصفين (قديماً أو حديثاً) – ممن لم يدخلوا في الإسلام، ولم يمنعهم ذلك من أن يقدموا شهادة إيجابية تعبّر عن إعجابهم بشخصية رسول الإسلام وتمجّده، بل إننا لنجد منهم من تكلّم في حبّ الرسول الكريم وصفاته وأخلاقه وسيرته بما لا يقلّ عن حبّ المسلمين وتبجيلهم له، وألفوا فيه مؤلّفات مهمّة قد تربو على ما ألفه العرب والمسلمون في ذلك.[6]

لم يكن الإرث الثّقافي العربي البعيد يحمل أثراً لتعصّب ديني، فقد عاش في العرب الوثنيين قبل الإسلام، الموحّدون على دين إبراهيم، كما عاش النّصارى واليهود والصّابئة وغيرهم من أصحاب الدّيانات. وجاء الإسلام، فأعلى من قيمة التّسامح، ونهى الرسول الكريم عن التشدّد والتعصب؛ ضارباً المثل الأعلى في التّسامح الديني، وسار على نهجه من تبعه– خاصة في العصور الأولى– في معاملة النّصارى بينهم بالإحسان والعدل، وهو أمر– كما يقول نقولا زيادة– محلّ اتّفاق المؤرّخين.[7]

ولئن كان قد حدث خلاف بين المسلمين واليهود أفضى إلى قتال، في زمن الرّسول، فإنّ ذلك لم يحدث مع المسيحيين، وقد قيل في تفسير ذلك إنه لم تكن هناك تجمّعات مسيحية قوية في بلاد العرب– في ذلك الوقت– باستثناء اليمن. لذلك لم يعرف المسلمون الاختلافات بين المسيحيين إلا بعد أن عرف المسلمون أنفسهم الاختلافات، وظهرت الفرق والمذاهب الدّينية.[8] فثارت– مع الأسف– النّعرات العصبية والدّينية والمذهبية؛ لتشهد القرون اللاحقة (على تفاوت نسبي) فتناً

---

[2] السابق، الصفحة نفسها.

[3] السابق، الصفحة نفسها.

[4] السابق، ص 14، 15.

[5] ينظر نشأت العناني، مراثي الرسول صلّى الله عليه وسلم عقب وفاته، دار العهد الجديد للطّباعة، القاهرة، ط1 1982م، ص 7.

[6] ينظر مثلاً محمد عبد الشافي القوصي، في كتابه محمد صلّى الله عليه وسلّم في أشعار النّصارى العرب، نشر منظمة الإيسيسكو، الرباط، 2011م، ص 21، 22.

[7] نقولا زيادة، المسيحية والعرب، شركة قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط3 2001م، ص 197، وينظر أيضاً كتاب المسيحية في الإسلام، منير غبور وأحمد عثمان، الهيأة المصرية للكتاب، القاهرة، 2009م، ص 19، وما بعدها.

[8] ينظر نقولا زيادة، سبق ذكره، ص 184، وما بعدها.

وويلات، لكن أكثرها لم يكن خاصاً بالنّصارى، فما وقع عليهم من مظالم، كما حدث في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي– مثلاً– لم ينج منه المسلمون أنفسهم.[9] وقد زاد من سوء العصبية الدّينية ما تعرّضت له البلاد الإسلامية– في العصور المتأخرة– من حملات للفرنجة النّصارى (حملة الصّليب)، فاحتدم الصّدام، وشبّت نار التّعصّب الدّيني، حيث "سادت الحروب باسم الدّين".[10] وعدّ عصر الحروب الصّليبية (الذي دام لقرنين من الزّمان) "عصر صدام بين عقيدتي الإسلام والمسيحية"،[11] واختلط الحابل بالنابل، فأثار القادمون بالصّليب من الغرب، كما يقول نقولا زيادة، النّفور بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الإسلام.[12] ظهرت– في هذا السّياق– أشعار المسلمين التي تفاخر بعروبة الإسلام، وعروبة نبيّه، بل ليتّخذ مدحه– صلّى الله عليه وسلم– وتمجيد رسالته والإشادة به، ذريعةً لمناكفة النّصارى، ومناقشة عقيدتهم.[13] وازدادت حميّة الشّعراء في الانتصار للإسلام على المسيحية، حتى ليجعلوا نصر جيوش المسلمين نصراً للقرآن على الإنجيل، ويخاطب الشّاعر الحلّي أتباع المسيح قائلاً:

أعبّادَ عيسى إنّ عيسى وحزبه وموسى جميعاً يخدمون محمّدا[14]

صحيح أنّ الشّاعر قصد التّورية باستخدام اسمي (المعظّم عيسى) و(الأشرف موسى)، في خدمتهما للملك (محمّد الكامل)، كما يوضّح صاحب النّجوم الزّاهرة،[15] ولكن دلالة التّورية واضحة في قصد الأنبياء عليهم جميعاً السّلام. على أنّه، بالرّغم من ذلك كلّه، لم يفلح نصارى الغرب في استمالة النّصارى المحلّيين إلى صفوفهم إلا النّزر اليسير، فالثّابت تاريخياً أن المسيحيين المقيمين كانوا يقاتلون حملة الصّليب من الغرب، ومواقفهم مع القائد صلاح الدّين في فتح القدس، وفي حصار عكا مشهورة.[16]

موضوع استدعاء شخصية الرّسول في الشّعر العربي في مطلع العصر الحديث

لعلّ أوّل ما يستوقف الدّارس، هو أنّ أكثر ما يرد من شعر يتناول الرّسول الكريم في شعر النّصارى ظهر بشكل واضح في أوائل القرن العشرين بالدّرجة الأكبر لدى شعراء سوريا ولبنان، وأكثرهم من شعراء المهجر. ومن المعروف أنّ الوطن العربي قد قاسى– في أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين– من أحوال مضطربة وظروف صعبة في شتى مناحي الحياة، دفعت كثيراً من الشّعراء النّصارى– كما دفعت غيرهم– إلى الهجرة في الأرض طلباً للأمان والرّزق.[17] لقد كانوا حديثي عهد بنهضة وليدة، قاست من ظروف داخلية بائسة من انتشار المظالم، والفقر وسوء أحوال البلاد وفتن واضطرابات–في أواخر العهد العثماني– مع خطر خارجي لمستعمر تهدّد أرضهم ووجودهم؛ وإن كان يتبع الدّيانة

[9] ينظر نقولا زيادة، سبق ذكره، ص 191.

[10] أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في العصور الصليبية بمصر والشّام، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2 لات.، ص 516.

[11] السّابق، ص 297.

[12] ينظر نقولا زيادة، سبق ذكره، ص 214.

[13] السّابق، 298.

[14] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ج6، ص 243.

[15] السّابق، الصفحة نفسها.

[16] ينظر نقولا زيادة، سبق ذكره، ص 215، وينظر أيضاً سمير عبده، المسيحيون السّوريون خلال ألفي عام، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1 2000، ص 87.

[17] ينظر مثلاً في أسباب هجرة العرب إلى المهجر، وأقوال المهاجرين في ذلك: محمد عبد الغني حسن، الأدب العربي في المهجر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955م، ص 24، وما بعدها، وكذلك محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1952م، ص 86 وما بعدها.

المسيحية–على اختلاف في مذاهبها– مثلهم، على حين يقع شركاؤهم في الوطن– من المسلمين– ضحايا معهم لبطش ذلك المستعمر وما فرضه من عنت وظلم. كما وجدوا أنفسهم في مواجهة أعدائهم التاريخيين (اليهود)، في إطار مطامع سياسية تهدف إلى إقامة دولة لهم تقوم على أساس عقائدي يخصّهم.

لقد هيّج الشّعور الدّيني– لدى المسلمين– محاولة الاستعمار الغربي (تنصيرهم)، بكثرة الإرساليات الإنجيلية التّبشيرية الوافدة من الغرب إلى بلاد العرب، في أوائل القرن التّاسع عشر، ونشطت في النّصف الأول من القرن العشرين،[18] فانبرى كثير من الشّعراء المسلمين– تحت وطأة الإحساس بالخطر والتّهديد– إلى مهاجمة النّصارى ودينهم المضلّل، على نحو ما كان في زمن الحروب الصّليبية، ومن ثمّ، كان استدعاء شخصية الرّسول محمّد– صلّى الله عليه وسلّم– الوسيلة للدّفاع عن الإسلام، ودحض مزاعم أعدائه المعاصرين، ومقاومة الإلحاد، والدّعوة إلى اليقظة والاتحاد،[19] حتى ليقول الشّاعر:

إذا أردتم سلام الأرض فاتّبعوا محمّداً، وأريحوا هيأة الأممِ[20]

ولم يكن هذا السّياق وحده– بطبيعة الحال– مثار استدعاء شخصية الرسول الكريم، لدى الشّعراء المسلمين، لكنه ليس موضوع هذا البحث، فقد قامت دراسات عديدة تستجلي ذلك وتبيّنه.[21]

أما استدعاء شخصيته– عليه السّلام– عند الشّعراء النّصارى، فقد ظهرت بشكل ملحوظ، وإن كان إعجاب الأدباء المسيحيين بالإسلام ورسوله لم ينحصر حضوره في الشعر، فاللافت للاهتمام هو وفرة هذا الحضور في التأليف النّثري أيضاً، مثل كتب نظمي لوقا الشهيرة: (محمّد الرّسالة والرّسول)، و(وامحمّداه)، و(أنا والإسلام)، وغيرها من المؤلّفات، حتى دفعت بعض المسلمين إلى الاستغراب والارتياب في دوافعهم واتّهامهم بالاستغلال أو المتاجرة بالعاطفة الدّينية،[22] كما أثارت مشاعر الاستهجان والاستنكار من قبل بعض أتباع الدين المسيحي نفسه؛ واصفين أولئك الشّعراء بالمروق والتّزلّف.[23]

في الواقع، جذب موضوع اهتمام النّصارى بالإسلام وهديه ورسوله– في الشّعر العربي– عدداً من الكتّاب والدّارسين، فظهرت مقالات وفصول من الكتب تتناول مثل هذا الموضوع، مع تنوّع في منحى هذا التّناول وطريقته، بين مقالات

---

[18] ينظر الحسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، المكتب الملكي للدراسات الدينية، عمّان، 1995م، ص 120، وينظر أيضاً سعيد غراب، شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، 2009م، ص 64. وإن كانت بدايات العمل الإنجيلي في الشرق تعود إلى منتصف القرن السابع عشر تقريباً. وقد سعت الإرساليات الإنجيلية لانتزاع اعتراف من الدولة العثمانية بعدّ الطائفة الإنجيلية ملة مثل باقي الملل، وبالفعل صدر الفرمان العثماني الأول بذلك سنة 1850م. ينظر القس حبيب بدر. الإرساليات والكنائس الإنجيلية التبشيرية في المشرق، في كتاب المسيحية عبر تاريخها في المشرق، تحرير حبيب بدر وآخرين، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ط1 2001م، ص 713، 714.

[19] سعيد غراب، سبق ذكره، ص 27.

[20] هو الشّيخ الصّاوي شعلان (م1902–1982م)، نقلاً عن سعيد غراب، سبق ذكره، ص 90.

[21] من ذلك مثلاً كتاب محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، حلمي القاعود، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1 1987م، وكتاب صورة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الشعرية العربية قديمها وحديثها، وليد منير، دار مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2009م.

[22] على نحو ما نشرته (أخبار اليوم) من تعليق لمحمود بن الشريف على خبر صدور كتاب (أنا والإسلام)، بأن الكاتب إما أن يكون مؤمناً بما يكتب، فيعلن إسلامه، وإلا فهو باق على عقديته، فيكون كتابه نوعاً من التجارة، مشيراً عدد النسخ التي وزعت من بعض كتبه، وإقرارها في مناهج التعليم من قبل الوزارة! ينظر حلمي القاعود، محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، سبق ذكره، هامش ص274.

[23] ينظر حلمي القاعود، سبق ذكره، ص 296 وما بعدها.

تحتفي بهذا الاهتمام وتشيد به، من مثل مقال (شعراء مسيحيون نظموا أروع القصائد في مدح نبي الإسلام)، لمحمد أبو العيون، منشور (نوفمبر 2017م) في بوابة الأزهر الشريف الإلكترونية، وهو-كما يبدو من عنوانه- يستعرض بعض الأبيات التي تشيد بالنّبي الكريم، وتعبر عن الإعجاب به، وكذلك الشّيخ عبد السّلام البسيوني، في مقاله (شعراء النّصارى يمدحون النّبي صلى الله عليه وسلّم)، الذي نشر في أسواق المربد: مجلة الأديب العربي بتاريخ 15. 1. 2015م.[24]
كذلك نجد إشارات متفرّقة إلى هذا الموضوع في الدّراسات التي تناولت الأدب العربي في المهجر.[25]

وقد جمع ماجد الحكواتي ثلاثاً وثمانين قصيدة، لواحد وخمسين شاعراً من الشّعراء العرب النّصارى، في كتاب أطلق عليه: (شعراء النّصارى العرب والإسلام: نصوص شعرية)، وطبعته مؤسّسة البابطين بالكويت 2006م، وقدّم له رئيس المؤسّسة بكلمة تحتفي بالكتاب، وتوضّح غايته من نشر قيم التّسامح بين الدّيانات، وتعزيز اللحمة الوطنية في بلاد العرب. وعرض الكتاب جهاد الخازن في حلقتين في صحيفة الحياة، وقدّم نماذج منه.[26]

كما صدر كتاب صغير الحجم نسبياً (يقع في 59 صفحة بما فيها المقدّمتان والفهرس)، بعنوان: (محمد صلى الله عليه وسلّم في شعر النّصارى العرب) وهو أيضا نصوص شعرية أعدها وقدّمها وعلّق عليها محمّد عبد الشّافي القوصي، نشرته المنظّمة الإسلامية للتّربية والعلوم والثّقافة (الإيسيسكو)، سنة 2011م، في إطار سعيها إلى التّصدّي للحملة الشّرسة على الإسلام ونبيه الكريم، كما يقول رئيسها في تقديمه للكتاب. ومن هنا، فهو كتاب يحتفي بما جمعه من أقوال للنّصارى في تقريظ الإسلام ورسوله، ولم يتقيّد بالشّعراء النّصارى، فقد استعرض- في حديثه عن المدائح النبوية والمعارضات- كثيراً من قصائد الشّعراء المسلمين. كذلك لم يقف عند الشّعر وحده، فقد أورد بعض الشّواهد النّثرية، فأورد أسماء مؤلّفات كتبت عن الرّسول مما أسماه (بستان المحمّديات)[27]، وهو لا يختصّ بكتابات النّصارى أيضاً. كذلك لم يقتصر على الأدب العربي، فقد تضمّن بعض الشذرات من أقوال نصارى الغرب أيضاً. وقد أصدر فارس يواكيم كتابه (الإسلام في شعر المسيحيين)، عن دار الفرات للنشر والتوزيع، في بيروت سنة 2016م، عرض فيه نماذج من أشعار الشعراء المسيحيين، من أقطار عديدة من الوطن العربي، مع التعريف بالشعراء. وإن لم يكن موضوع الكتاب منصبّاً على شخصية الرسول محمّد في أشعارهم، لكنه تضمن قصائد تتغنى بالرسول وتناجيه وتبّثه شجون قومه؛ مبيّناً اعتزاز أولئك الشعراء بالإسلام وبنبيّه.

---

[24] الشيخ عبد السلام البسوني، في مقاله (شعراء النصارى يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم)، ونشر في أسواق المربد: مجلة الأديب العربي بتاريخ 15. 1. 2015م، على هذا الرابط: http://www.merbad.net/vb/content.php?r=1563-%D4%DA%D1%C7%C1-%C7%E1%E4%D5%C7%D1%ED-%ED%E3%CF%CD%E6%E4-%C7%E1%E4%C8%ED-%D5%E1%ED-%C7%E1%E1%E5-%DA%E1%ED%E5-%E6%D3%E1%E3

[25] ينظر على سبيل المثال كتاب محمد عبد الغني حسن، الأدب العربي في المهجر، سبق ذكره، ص 50 وما بعدها، وعيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ط3 1966م، ص 119 وما بعدها، وصابر عبد الدايم، أدب المهجر: دراسة تأصيلية لأبعاد التجربة التأملية في الأدب المهجري، دار المعارف، القاهرة، ط1 1993م، ص 267 وما بعدها.

[26] جهاد الخازن، مقال (عيون وآذان: نصوص شعرية1، 2)، صحيفة الحياة، بتاريخ 25،26.10.2011 على هذين الرابطين: http://rasseen.com/art.php?id=d37f1d6c2fd3af28fddc46e5e404a3736bb74a47
https://www.sauress.com/alhayat/322466

[27] محمد عبد الشّافي القوصي، سبق ذكره، ص 19، وما بعدها. وللمؤلف كتاب آخر اسمه محمد صلى الله عليه وسلم مشتهى الأمم.

وربما يعدّ حلمي القاعود من أول من توّقف عند هذا الموضوع بدراسة منهجية، في رسالته للدّكتوراه التي عنوانها (محمد صلى الله عليه وسلم في الشّعر الحديث) وصدرت في كتاب مطبوع، وإن لم يخصص دراسته لأشعار النّصارى، فقد عقد فصلاً للنّظر إلى أشعارهم في رسول الإسلام، تحت عنوان (المصلح الاجتماعي: من خلال منظور نصراني).[28] وقد تناول المؤلّف مجموعة من القصائد، ناقش بعض أفكارها في ضوء مفهومه الإسلامي، كما أكّد أنّ رؤية أولئك الشّعراء النّصارى لرسول الإسلام تنطلق من منطلق فكري عام يقوم على أساس القومية العربية ويصرّ عليها، ومن ثمّ، لم يمنع– في رأي المؤلف– من أن يخالطه بعض الشّعر الذي يحمل سمات من التّحامل على الإسلام، ويمثّل على ذلك بما بدا من غضب على جورج صيدح حينما سمع عن نية المسؤولين تغيير مادة الدّستور في سوريا، لتجعل من الإسلام الدّين الرّسمي للدّولة، بدلاً من أن يسمّى دين رئيس الدّولة.[29] وكذلك أشار إلى أشعار إيليا أبي ماضي التي تتوجّه–في رأيه– بمشاعر الحبّ والودّ إلى الأمريكان والقائد الإنجليزي، في حين يصبّ مشاعر الكراهية والبغضاء على الأتراك، وعلى (خليفة المسلمين عبد الحميد).[30] كما يرى في تعبيره عن فرحته بنصر الإنجليز على الأتراك معنى صليبياً يقوم على التعصّب الديني، ليخلص بأن ما ورد من ذكر لنبي الإسلام في قصائد أبي ماضي، فهو يأتي "عرضاً ليغطّي أو يخفّف من قضية يعالجها بمنظوره التعصّبي السّافر أو المقنّع."[31] ومن ثمّ، يتساءل المؤلّف عن دوافع الشّاعر لأن يقف هذا الموقف المتعصّب، عارضاً في تفسير ذلك احتمالات ثلاثة؛ أوّلها استياء الشّاعر من الحكم التّركي ومظالمه في تركيا، لكنّه سرعان ما يدحضه بأنّه لم يكن وحده في ذلك، بل يرى الأتراك أنفسهم كانوا ضحية "لأبشع مؤامرة عرفها التّاريخ الإسلامي الحديث."[32] والاحتمال الثاني أن تكون حياة أبي ماضي في المهجر قد تأثرت بالنّمط الغربي في النّظر إلى الشّرق الإسلامي والخلافة العثمانية، لكنّه يردّه أيضاً بأنّه قد عاش كثير من الشّعراء العرب النصارى في المهجر، وبعضهم عاش في المهجر فترة أطول مما عاش أبي ماضي، "وكانت مشاعرهم أكثر توهّجاً وإشراقاً وتعاطفاً مع إخوانهم المسلمين."[33] وبذلك فيبدو الاحتمال الثالث، وهو الدّافع الشّخصي أو الذّاتي، هو الذي يميل إليه المؤلّف، في تفسير وقوف الشاعر هذا الموقف المعادي.[34]

وإذا تأمّلنا القصائد التي ذكرت الرّسول الكريم، نجدها قد تنوّعت في سياقاتها، وأبرزها مناسبة ذكرى المولد النّبوي، والهجرة النّبوية التي يستند إليها التّقويم القمري للمسلمين، ويحيونها في كلّ عام. وقد حرص أولئك الشّعراء على حضور مثل هذه المناسبات الدّينية، ومشاركة المسلمين35 في إحيائها والاحتفاء بما تثيره من معانٍ وقيم، تبدو ظروف الحياة التي يعيشها الشّعراء تفتقدها بشدّة. ففي ظلّ ظروف الحرب والفتن المشتعلة، والقوى الاستعمارية تعمل يدها بحبائل التّفرقة

---

[28] حلمي القاعود، محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، سبق ذكره، ص 272–322.

[29] السابق، ص 280، ص 281.

[30] السابق، ص 282، وما بعدها.

[31] السابق، ص 291.

[32] السابق، ص 290.

[33] السابق، ص 291.

[34] السابق، الصفحة نفسها.

[35] كما كان المسلمون يشاركون في احتفالات أعياد النصارى، مراعاة للمشاعر الدينية، وكان منهم من يحفظ القرآن الكريم. ينظر سمير عبده، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام (سبق ذكره)، ص 106 وما بعدها.

وإثارة النّعرات المختلفة، والنّاس تنازعهم الولاءات المختلفة، والبلاد تنتهك بفعل الطّامعين من الدّاخل والخارج، تجلّت شخصيّة الرّسول– ببعديها الإلهي والإنساني– الطّوق الذي يحاول الشّعراء العرب، من أتباع دينه ومن غيرهم، التمسّك به للنّجاة من أهوال ما تهدّدهم. لذلك بالوقوف على الصّفات التي يستدعيها ويستحضر معانيها هؤلاء الشعراء، ممّا عرف من أخلاق الرسول وسيرته، يمكن فهم الغائب المفقود المقصود! وهي تدور حول معانٍ محددة يتداولها الشعراء ويكرّرونها، ويلحّون عليها. فالمعاني التي يجسّدها الرّسول الكريم عندهم يمكن إجمالها في النّقاط الآتية:

- الصّدق في الاعتقاد، والثّبات على المبدأ.
- الصّبر على المعاناة من أجل العقيدة، والتّضحية في سبيل الحقّ.
- محاربة الباطل بكلّ مظاهره: من جهل وتخلف وتفرقة وضعف.
- الحكم بالعدل والحلم والتسامح، والبعد عن العصبية.
- توحيد صفوف العرب في أمّة قوية متماسكة البنيان، تهابها الأمم.

فخليل مطران (1872–1949)، الملقّب بشاعر القطرين (لبنان ومصر) يشارك المسلمين بمصر احتفالهم برأس السنة الهجرية (1329هـ) بقصيدته التي مطلعها:

هلَّ الهلال فحيوا طالع العيد حيوا البشير بتحقيق المواعيد [36]
يا أيها الرّمز تستجلي العقولُ به لحكمة الله معنىً غير محدود

ويذكر معاناة الرسول، وجهاده وتضحيته لتمكين دين الله وهديه، فيقول:

عانى محمّد ما عانى بهجرته لمأربٍ في سبيل الله محمود
وكم غزاةٍ وكم حربٍ تجشّمها حتى يعود بتمكين وتأييد
كذا الحياة جهادٌ، والجهادُ على قدر الحياة، ومن فادى بها فودي

ويسترسل في بيان أثره صلى الله عليه وسلم في محاربة الضّلالة والجهل، وتوحيده بين الناس على اختلافاتهم، بإقامة العدل، والأخذ بالشورى، وبالإحسان وحسن المعاملة التي شملت حتى أصحاب الدّيانات الأخرى، يقول:

بأيّ حلم مبيدِ الجهل عن ثقةٍ وأيّ عزم مذلّ القادةِ الصّيدِ
أعاد ذاك الفتى الأميُّ أمّتَه شملاً جميعاً من الغرّ الأماجيد
وزاد في الأرض تمهيداً لدعوته بعهدِه للمسيحيين والهود
وبدئه الحكم بالشورى يتمّ به ما شاءه الله من عدلٍ ومن جودِ
هذا هو الحقّ، والإجماع أيّده فمن يفنّدُه أولى بتفنيدِ!

لقد تجلّت ثقافة مطران الدّينية والتّاريخية في القصيدة، كما تتجلّى في سائر شعره، فضلاً عن نزعته الموضوعية وميله إلى الأسلوب القصصي الذي ميّزه وعرف به.[37] وقد رأى محمّد مندور في لجوء الشاعر، في قصائده، إلى المنحى التاريخي، والأسلوب القصصي ما قد يكون (هروباً من الواقع)، نتيجة للظّروف القاسية التي عاصرها من طغيان واستبداد،

[36] عبد الرّحمن الرافعي، شعراء الوطنية، مؤسسة هنداوي، لندن، 2020م، ص 186، وما بعدها.
[37] ينظر مثلاً كتاب (خليل مطران)، لمحمّد مندور، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، 1954م، ص 47.

وهو الشّاعر الذي ينفر من الظّلم ويعشق الحرية.[38] ولعلّنا لا نعدو الصّواب إن فسرنا استدعاء مطران (وكثير من زملائه) لشخصية الرّسول ومناقبه في هذا الاتجاه، فنراه بدلاً من أن يندّد بظلم ساسة عصره وتضييقهم على النّاس، يشيد بعدل الرّسول وجوده وسماحته، وبدلاً من أن يذمّ جهل الجاهلين الذين استسلموا لفتن التّشتيت والتّفرق والعصبية، إذا به يذمّ تلك الصّفات في أهل الجاهلية الأولى الذين استحقّوا الحرب من الرّسول، وبدلاً من أن يندّد بمن نبا عن خلق الرّسول ، يكتفي بالدّعوة إلى الاقتداء به، كما في قوله في القصيدة المذكورة آنفاً، وكأنّه يعمل بالمثل الشّهير (إيّاك أعني واسمعي يا جارة):

وبدئه الحكم بالشّورى يتمّ به ما شاءه الله من عدلٍ ومن جودِ
هذا هو الحقّ، والإجماع أيّده فمن يفنّدُه أولى بتفنيدِ!

أو كقوله واصفاً الجاهليين:

لا ينزل الرأي منهم في تفرّقهم إلا منازل تفريق وتشريدِ!

أو كقوله مخاطباً فتيان مصر:

فإن تسيروا إلى الغايات سيرته إلى الكمال، فقد فزتم بمنشود

وللشّاعر اللبناني مارون عبود، له قصيدة مطوّلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، يذكر فيها قبس الهدى والحضارة الذي شعّ على أمته من صحرائها، يقول:

لولا كتابُك ما رأينا معجزًا في أمةٍ مرصوصة البنيان
حملت إلى الأقطار من صحرائها قبس الهدى ومطارف العمران[39]

وينظم رشيد سليم الخوري الذي اشتهر بالشّاعر القروي (1887–1984) قصيدة بعنوان (عيد البرية) يذكر فيها عهود الإسلام الزّاهرة، ويحث المسلمين لاستعادة عزّهم ومجدهم التّليد:

عيدُ البريّة عيدُ المولد النبويّ في المشرقين له والمغربين دويّ
عيد النبيّ ابن عبد الله من طلعت شمسُ الهداية من قرآنه العلويّ

ويتمنى أن يعود عهد الرّخاء في بغداد والأندلس فيقول:

يا حبذا عهد بغداد وأندلس عهد بروحي أفدّي عَوْدَهُ وذوي

وتناول جورج صيدح (1893–1978)، في قصيدته في المولد النبي،[40] سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ معدّداً أفعاله الجسام، وينهي كلّ مقطع بعبارة مستمدّة من القرآن الكريم، من قبيل قوله:

يا من سريت على البرا ق وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجدّ د ليلة المعراج.. آن

[38] ممد مندور، خليل مطران، ص 32، 33.
[39] السابق، ص 105، والقصيدتان في كتاب ماجد الحكواتي، شعراء النصارى العرب والإسلام، سبق ذكره، ص 47– 60.
[40] ينظر ماجد الحكواتي، ص 89، وما بعدها.

...أنت الذي علمتهم دفع المهانة بالسنان

... يا صاحبي بأيّ آلاء النبي تكذبان؟[41]

وعلى نهجه نظم إلياس قنصل (1911–1981) قصيدته المطولة (النبي العربي الكريم)، قدّم لها بمقدمة تعبّر عن مشاعر الإعجاب والتّبجيل لشخصية الرّسول، مؤكّداً أنّه عند مطالعته لسيرته، رأى فيها مجلى لأفعال الكرامة والعزّة، وصوراً لما يمكن للأمة أن تأتيه لو اتبعت هديه وسبيله. ولا يخفى ما في قوله من تنديد بأحوال العصر، وما فيه من إدانة لمن تنكّب طريقه ممّن يدعي اتّباعه، حيث يقول فيها:

الحق شرعك فامض فيه مؤمّلاً ما آب غير الكفر بالخذلان

عميت نفوس النّاس من أهوائها فأعد جمال النور للعميان

ثم ينتقل الشّاعر إلى الحديث عن وقائع من حياته، فيشير إلى ثباته في دعوته التي لم يتنازل عنها بما أغروه من عروض بالمال أو بالجاه والسلطان، وهو في ذلك مثل يحتذى، ودرس يستفاد منه، فيقول:

إني ذكرتك يا محمد والعدا يتألّبون تألّب الذؤبان

ضربت على أبصارهم وقلوبهم ليل الفساد أصابع الشّيطان

...ما المال حين تقيسه برسالة علوية؟ ما المجد؟ ما القمران؟

مثلٌ من الخلق الجليل تركته درساً لكل مناضل متفان

الإسلام والمسيحية:

وكثيراً ما تتداخل هذه المعاني التي يجسّدها محمّد– صلّى الله عليه وسلّم– في القصيدة الواحدة، وقد يقترن الحديث عنه وعن رسالته، بالنّصرانية ونبيّها، في سياق التّأكيد على الأصل الواحد للدّيانتين، والتّذكير بنصرانية الشّاعر الذي يتغنّى بحبّ رسول الإسلام وفضائله، وبالتالي فلا معنى للتّناحر والتّفرقة والتّعصّب الدّيني الذي يذكيه الأعداء، ولا يخدم سواهم، أو في التّنويه بما بينهما من فرق في مشروعية القتال لنصرة الحقّ، في الإسلام، وهو ما ينحاز إليه الشّاعر المسيحي (كما سيأتي). فعبد الله حلاق (1911–1996) مؤسّس مجلّة الضّاد في حلب، حين يشارك المسلمين الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم، يقول في قصيدة شهيرة، مسجّلاً إعجابه واعتزازه بمآثره الكريمة:

إني مسيحيّ أجلّ محمداً وأراه في سفر العلا عنوانا

إني أباهي بالرّسول لأنّه صقل النّفوس وهذب الوجدانا

ولأنّه داس الجهالة وانتضى سيف الجهاد فحطم الأوثانا

ولأنّه صان العروبة وابتنى للعرب مجداً رافق الأزمانا

ويؤكّد ميشال مغربي بحبّه لمحمّد وعيسى معاً– عليهما السّلام– الصّلة الوثيقة ين الديّانتين؛ قائلاً:

إنّي لفي قلبي المسيح وأحمد ولفيه آمنةٌ تقيم ومريمُ

ويتغّنى بهذا التّقارب الوثيق حليم دموس (1888–1957) كذلك، في مثل قوله:

[41] السابق، ص 92.

فألمح في القرآن عيسى بن مريم وأشهد في الإنجيل روح محمّدِ

ويقرئ الشّاعر القروي رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامه وحبه، داعيًا إلى التحابّ والتآخي بين المسلمين والنصارى، خدمة لأوطانهم والشرق كله، ولا ينسى أن يعلن أنّه ما يزال على مسيحيته، فاختلاف الدّين لا يعني العداء والبغضاء، فيهتف:

يا قوم هذا مسيحي يذكّركم لا يرجع الشّرق إلا حبّنا الأخوي

فإن ذكرتم رسول الله تكرمة فبلغوه سلام الشّاعر القروي[42]

ويؤكّد آصرة العروبة التي يحاول بها رأب ما صدّع الغريب من شمل أبناء الوطن الواحد، هذه الآصرة- كما يراها- لا تتنافي مع الدّيانتين:

أرضيتُ أحمدَ والمسيحَ بثورتي وحماستي، وتسامحي وحناني

يا مسلمون ويا نصارى دينكم دينُ العروبةِ واحدٌ لا اثنانِ

ومارون عبود الذي من حبّه للرسول سمّى ابنه محمّداً، عبّر عن اعتزازه بهذه التّسمية في قصيدته (محمّد مارون)[43]، كما أشاد بسلوك صاحبه في المهجر محمدّ الحلبي الذي اقتدى به- كما يقول- وسمّى ابنه محمّد، فامتدح ذلك السلوك بما يدلّ عليه من تسامح وتساهل، في قصيدة أسماها (مارون محمّد)،[44]يقول فيها:

يا بن التّساهل من بني معروفِ اسلمْ رسول الحبّ والتّأليفِ

وفيها يشتكي مما صنعته الأديان، في أجمل بقعة من الأرض، كل ذي دين ينتسب لنبيّه ويتعصب له، ولا يرى سواه:

عجباً لأجمل بقعة قد قسمت أبناءها الأديان شرّ صفوفِ

فالعيسوي يرى السّما مشتى له والأحمدي يقول تلك مصيفي![45]

ويتساءل في قصيدته (بابل الأديان)، منادياً وطنه الذي مزقته الأحقاد والفتن باسم الدين، متحسراً:[46]

يا بابل الأديان يا وطني يا مسرح الأحقاد والفتن

...هل فرّق (السّفّاحُ) يوم طغى ما بين معمودٍ ومختتنِ؟!

ومن ثمّ يدعو إلى التّآلف على محبّة الوطن، والتّسامح ونبذ التعصّب والتّنازع باسم نصرة عيسى ومحمد، فهما في غنى عن هذه النصرة، فالوثنية أفضل- كما يقول- من دين يقول على العصبية:

أبناء أحمد والمسيح ألا لفّوا حديث الأمس في كفنِ

يسوع لا يحتاج نصرتنا ومحمّدٌ عنّي وعنك غني!

جاءا لبثّ النّور مرحمةً فإلام نألف وحشة الدّجنِ؟!

[42] ماجد الحكواتي، سبق ذكره، ص 60، 61.

[43] مارون عبود، زوابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص 21، وما بعدها.

[44] السابق، ص 103.

[45] السابق، الصفحة نفسها.

[46] السابق، ص 55.

...إن كانت الأديان علّتنا يا ليتنا من عابدي الوثنِ![47]

ولا ينبغي أن يحمل البيت الأخير على التّجديف، فحميّة الشاعر وغيرته على الدّين واضحة في الأبيات، وقريب من ذلك ما قاله الشّاعر القروي، بعد أن بلغت نار التّعصب شأوها، ومزّقت أشلاء البلاد الواحدة:

سلامٌ على كفرٍ يوحّد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنّمِ![48]

ففي وقت الشّدائد وكثرة المظالم، ووقوع العدوان، لن يعيد الحبّ والتّسامح الحقّ المغتصب، بل القوّة الرّادعة تجب، كما يقول الشّاعر القروي–في أشعاره المتأجّجة غضباً التي جمعها ونشرها تحت اسم أعاصير، وقدّم لها بمقدمة توضّح دواعي هذه الحمم التي أطلقها في جرأة صادقة، مثل قوله مخاطباً سلطان باشا الأطرش:

إ ذا حاولت رفع الظّلم فاضرب بسيف محمّد، واهجر يسوعا[49]

فوحوش أوربا، كما يقول في قصيدة أخرى،[50] لا تخاطب إلا بمنطقها– منطق القوّة، أما المحبّة، فهي لبني الإنسان وحدهم! إن الظّروف الأليمة التي عانى منها أبناء الوطن الواحد الرّازح تحت نير الظّلم والعدوان، ليصبحوا بين شقّي رحى حروب سلاحها الناجع هو ما يسري بين العرب من فتن تفتّت جمعهم، وتتأكلهم، لذلك لا نستغرب تلك الدّعوات المستميتة إلى الوحدة، وحبّ الوطن، ليصير شعار المجلة الرائدة في عصر النّهضة،[51] التي أطلقها بطرس البستاني، بعد رسائله الوطنية باسم (نفير سورية) التي خاطب بها أبناء وطنه، في أعقاب ما عرف بـ (فتنة الستين)[52] سنة 1860م في لبنان، وكان يوقّعها بعبارة (من محبّ للوطن).

- **الاعتزاز بعروبة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم**

لقد عبّر الشّعراء النصارى عن إعجابهم بفصاحة النّبي، معتزين باللغة العربية التي خلّدها كتابه المعجز، وبيانه البديع؛ مؤكّدين الرّابطة القومية التي تربطهم بالرسول العربي، ويتجلّى ذلك بوضوح في عناوين كثير من قصائدهم على نحو (محمّد والعرب)، و(النبي العربي الكريم)، و(الرسول العربي)، و(مولد النّبي العربي)، و(في مولد الرّسول العربي).

وأبيات محبوب الخوري الشّرتوني (1855–1931) من أشهر ما يمثّل هذا الاعتزاز:

قالوا تحب العرب قلت أحبهم يقضي الجوار عليّ والأرحام

قالوا لقد بخلوا عليك ... أجبتهم: أهلي وإن بخلوا عليّ كرام

ومحمّد بطل البرية كلها هو للأعارب أجمعين إمامُ

وهنا تبرز القومية رابطاً يشدّ الشّاعر النّصراني إلى النبيّ المسلم، لتجعلها رابطة تتغلّب على رابطة الدّين، فهذا المستعمر الفرنسي المشترك معه في الدّين (المسيحي) لا يقيم وزنا لذلك، فالدّين هنا لم ينهض رابطة توحد بين أصحابه، فلماذا

---

[47] السابق، ص 56.

[48] رشيد سليم الخوري، الأعاصير، مطبعة مجلّة الشّرق، لا ب.، 1933م، ص 111.

[49] السابق، ص 27.

[50] السابق، ص 34.

[51] (حبّ الوطن من الإيمان)، شعار صحيفة الجنان لبطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت، 1870م.

[52] ينظر بطرس البستاني، نفير سورية، دار الفكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط1 1990م.وفيها يخاطب الكاتب أبناء وطنه، باسم الوطن واللغة الواحدة. ينظر مثلاً ص 10، 11.

إذن يقوم عامل تفريق بين المواطنين المشتركين في القومية واللغة والوطن، ويتهددهم- على اختلاف معتقدهم- خطر واحد يصطلون بجحيمه جميعاً. ومن ثمّ كان إلحاح الشّعراء على رابطة العروبة، فالمسيحيون العرب يرون ما يربطهم بالعرب المسلمين أقوى مما يشتركون فيه مع النّصارى الغربيين الذين ما فتئوا في ترديد مزاعمهم التلّيدة بأنّهم إنما جاؤوا إلى الشّرق لحمايتهم. لقد كان شعار العروبة الذّريعة التي يتخذها الشعراء لإذكاء الحمية، وجمع الشّمل لمقاومة العدو، ومن ثمّ صار الرّسول العربي، مجال النّداء والاستغاثة، لاستنهاض همم المسلمين، وكذلك الشّكوى مما آلت إليه حالهم، كما يقول نصر سمعان (1905-1967):

سيّد المرسلين قم وتأمل كيف نامت عن العرين سباعه
هوّ ذا القدس في الجهاد وأشلاء بنيه حصونه وقلاعه

ويقول في قصيدة أخرى:

كلا وربك لن يطوى لنا علم ما دام منا النبي الطاهر العَلَم
غداً يطل وشمل العرب ملتئم والحق منتصر والبُطْل منهزم

ويقول ميشال مغربي (1901-1983) في قصيدته الذّائعة الصّيت (الرسول العربي) التي ألقاها عام 1954بدعوة من الجمعية الخيرية الإسلامية في المسجد الإسلامي بسان باولو:

لا عيد للعرب إلا وهو سيده عيد الرّسول الذي فخراً نعيّده
هي العروبة لا ينهد حائطها ما دام دين رسول الله يسنده

ولا غرو أن يثرن الفخر بعروبة النبي، التّغنّي باللغة العربية وجمال بيانها، كما في أبيات شبلي ملّاط (1878 1961) معبّراً عن اعتزازه بالعروبة التي تجمعه برسول الإسلام، وأصحابه ودينه وتاريخه ولغته، في مثل قوله:

من للزمان بمثل فضل محمد وعدالة كعدالة الخطاب؟
رفع الرسولُ عماد أمة يعربٍ وأعزها بالأهل والأصحاب
...واستنشد القرآن قوما جودوا منه بآي النفوس عذاب
واقرأ به فصحى اللغات مدلة في المشرقين بجوهر الأحساب

ويحثّ إلياس فرحات (1893-1976) من يجهل الإسلام لأن يدرسه ويتعرّف على تعاليمه السّمحة التي تدعو للتقدّم والعلم والرّقي مثلما تدعو لإقامة الشّعائر، ولذلك فإنّه ينادي الرّسول ويشتكي إليه بطش الجهل- الذي طالما حاربه الرسول- بالأمة العربية، يقول:

يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا أُمَّةٌ زَجَّهَا التَّضْلِيلُ فِي أَعْمَقِ هُوَّةْ
ذَلِكَ الجَهْلُ الذِي حَارَبْتَهُ لَمْ يَزَلْ يُظْهِرُ لِلشَّرْقِ عُتُوَّهْ
قُلْ لأَتْبَاعِكَ صَلُّوا وَادْرُسُوا إِنَّمَا الدِّينُ هُدَىً وِالْعِلْمُ قُوَّةْ

إنّ الاختلاف المذهبي بين نصارى الشّرق والغرب، جعل النّصارى العرب يرونه يفوق الاختلاف في الدّين مع المسلمين الذين تعايشوا معهم-عبر القرون- وشاركوهم التّاريخ والتّراث الثقافي نفسه. لذلك يرى بعض المؤرّخين أن المسيحيين

العرب كانوا الأسبق في المناداة بالقومية العربية من المسلمين.[53] إنّ ظروف المسيحيين التي هيأت لهم مخالطة الغرب ومعرفة لغاتهم بحكم المدارس التبشيرية الأجنبية التي كان لها أثر كبير في نقل آثار الفكر الغربي إلى لبنان، وبخاصة في البيئات المسيحية، قد يسّرت لهم سبل العمل في الترجمة مع البعثات الوافدة، من تجار وساسة ودبلوماسيين. ولعلّ هذا العمل الأخير أن يكون قد أساء إلى أصحابه، وجعلهم محلّ ريبة، وهو ما ظنه بعض المؤرّخين أن يكون السبب في اتّهام المسيحيين بالميل إلى الغرب، كما أنّه قد يكون– بشكل أو بآخر– سبباً في رمي من ينادي بالقومية العربية من المسيحيين بمحاولة الطّعن في الإسلام ومعاداته.[54] لكن ذلك لم يمنع تقدير عواطف أولئك الشعراء، ومواقفهم الإنسانية، وتذوّق أساليبهم الشّعرية، وتثمين حضور شخصيّة الرسول الكريم– في تلك الأشعار– في مستويات تجليها وأبعادها من بشري، وتاريخي، وإلهي، وهو ما يوفّر الفرصة النّادرة "لحضور المقدس بيننا. وهو ما يمنح هذا الحضور الشّخصي تركيباً مدهشا، وعمقاً شخصيا فريدا وخالدا..."[55]

الخاتمة

بعد هذه الجولة في أشعار النّصارى حول شخصية الرسول محمد عليه السلام، والتّعبير عن حبّه والاعتزاز به، يمكننا القول إنّ هذه النّفحات المستمدّة من فضائله المشتملة عليها سيرته لم يحتكر فيضها المسلمون وحدهم، فقد سرت منهم إلى غيرهم لتشملهم بالفضل والمحبة، وقد رأينا– في هذا الوفر الشعري– شعراء نصارى يمدحون الرسول الكريم ويناجونه مناجاة لا تكاد تقل صدقا ولا حباً وإخلاصاً عن الشعراء المسلمين، بل لعلّ معرفتنا بأن أصحابها يدينون بدين نبيّ آخر يزيد من قوّة وقعها على النفوس. واللافت أننا نجد تصورّهم لذات الرّسول وصفاته قريبا من التّصور الإسلامي، وهم ينتسبون إلى النصرانية التي عرف أكثر أصحابها بالشّطط في تصوّر صفات نبيهم المسيح عليه السلام ليصل حد الخلط فيها مع صفات الذّات الإلهية، وهي من الشّوائب بل الآفات التي قد تصيب الديانات وتنحرف بها عن جادّة عقيدتها.

ويمكن أن نستدلّ أيضاً على وجود جوّ من التعايش السلمي ومناخ التّسامح الدّيني والتّقارب الإنساني الذي كان يسود العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، فقرّب بين القلوب والضمائر، فاتّسعت العقول والمشاعر، لتقبّل الآخر الشريك في الإرث والوطن. ونستدلّ أيضاً على أن أصوات الشّعراء والأدباء استطاعت أن تجتاز الظّروف العصيبة بالمحن، ودعوات بالفتن، لتبحث عما يجمع الشّمل الشّتيت، فكانت شخصية الرّسول الكريم هي طوق النّجاة الذي اتّحدت عليه طوائف الفرقاء في الوطن.

من المراجع

1. ابن طلال، الحسن، المسيحية في العالم العربي، المكتب الملكي للدراسات الدينية، عمّان، 1995م.

[53] سمير عبده، سبق ذكره، ص 105

[54] ينظر نقولا زيادة، سبق ذكره، ص 238، ص 239. وفي الواقع، أثارت قضية القومية العربية ردة فعل قوية، وخاصة حين تبناها دعاة حزب البعث، فكثرت الاتهامات لها بمعاداة الإسلام، فانبروا للدفاع عنها بحماسة، بالمحاضرات والمقالات والمؤلفات مثلما فعل ميشيل عفلق وغيره. ينظر مثلاً مقالة شبلي العيسمي (لا تناقض بين عروبة الإسلام وعالميته) في كتاب قراءات في الفكر القومي: الكتاب الثالث القومية العربية والإسلام والتاريخ والإنسانية، مجموعة من المؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 1994م، ص 480–490، وقد أشار فيها إلى جانب من هذا الهجوم، ورد عليهم مستشهداً بأقوال الشيخ ابن باديس عن ترابط العروبة والإسلام والإنسانية.

[55] وليد منير، صورة النبي صلى الله عليه وسلم في الشعرية العربية قديمها وحديثها، دار مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2009م، ص 35.

2. أحمد بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في العصور الصليبية بمصر والشّام، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2 لات.
3. بدر، حبيب، (وآخرون)، الإرساليات والكنائس الإنجيلية التبشيرية في المشرق، في كتاب المسيحية عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ط1 2001م،
4. بردي، ابن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ج6.
5. البستاني، بطرس، الجنان، مطبعة المعارف، بيروت، 1870م.
6. البستاني، بطرس، نفير سورية، دار الفكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط1 1990م.
7. حسن، محمد عبد الغني، الأدب العربي في المهجر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955م.
8. الخوري، رشيد سليم، الأعاصير، مطبعة مجلّة الشّرق، لا ب.، 1933م.
9. الرافعي، عبد الرّحمن، شعراء الوطنية، مؤسسة هنداوي، لندن، 2020م.
10. زيادة، نقولا، المسيحية والعرب، شركة قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط3 2001م،
11. عبد الدايم، صابر، أدب المهجر: دراسة تأصيلية لأبعاد التجربة التأملية في الأدب المهجري، دار المعارف، القاهرة، ط1 1993م.
12. عبده، سمير، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1 2000م.
13. عبّود، مارون، زوابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.
14. العناني، نشأت، مراثي الرسول صلّى الله عليه وسلم عقب وفاته، دار العهد الجديد للطّباعة، القاهرة، ط1 1982م.
15. العيسمي، شبلي، "لا تناقض بين عروبة الإسلام وعالميته"، في كتاب قراءات في الفكر القومي: الكتاب الثالث القومية العربية والإسلام والتاريخ والإنسانية، مجموعة من المؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 1994م، ص 480-490.
16. غبور، منير، وأحمد عثمان، المسيحية في الإسلام، الهيأة المصرية للكتاب، القاهرة، 2009م.
17. غراب، سعيد، شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، 2009م.
18. القاعود، حلمي، محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1 1987م.
19. مبارك، زكي، المدائح النبوية في الأدب العربي، مطبعة دار الشّعب، القاهرة، لا ت.
20. مندور، محمّد، خليل مطران، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، 1954م
21. منير، وليد، صورة النبي صلى الله عليه وسلم في الشعرية العربية قديمها وحديثها، دار مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2009م.
22. الناعوري، عيسى، أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ط3 1966م.
23. نجم، محمّد يوسف، القصة في الأدب العربي الحديث، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1952م.

24. يواكيم، فارس، الإسلام في شعر المسيحيين، دار الفرات للنّشر والتوزيع، بيروت، 2016م.

المواقع الإلكترونية:

1. جهاد الخازن، مقال (عيون وآذان: نصوص شعرية1، 2)، صحيفة الحياة، بتاريخ 26.10.2011، 25. على هذين الرابطين:
http://rasseen.com/art.php?id=d37f1d6c2fd3af28fddc46e5e404a3736bb74a47
https://www.sauress.com/alhayat/322466
2. عبد السلام البسوني، في مقاله (شعراء النصارى يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم)، نشر في أسواق المربد: مجلة الأديب العربي بتاريخ 15. 1. 2015م، على هذا الرابط:
http://www.merbad.net/vb/content.php?r=1563-%D4%DA%D1%C7%C1-%C7%E1%E4%D5%C7%D1%ED-%ED%E3%CF%CD%E6%E4-%C7%E1%E4%C8%ED-%D5%E1%ED-%C7%E1%E1%E5-%DA%E1%ED%E5-%E6%D3%E1%E3
3. محمد أبو العيون، شعراء مسيحيون نظموا أروع القصائد في مدح نبي الإسلام، بوابة الأزهر الشريف:
4. https://www.azhar.eg/load2/ArtMID/7268/ArticleID/20159/%D8%B4%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D8%A1-%D9%85%D8%B3%D9%8A%D8%AD%D9%8A%D9%88%D9%86-%D9%86%D8%B8%D9%85%D9%88%D8%A7-%D8%A3%D8%B1%D9%88%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%AF-%D9%81%D9%8A-%D9%85%D8%AF%D8%AD-%D9%86%D8%A8%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85
5. محمد عبد الشافى القوصِى، معارضة استثنائية لنهج البُرْدة للشاعر السوري ميخائيل ويردي، مجلة الرافد العدد 177 مايو 2012، مجلة شهرية تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام/ حكومة الشارقة:
http://www.arrafid.ae/arrafid/p6_5-2012.html